

## الحرية روح الشعب لا ديكاً في قن الحكم!

ادمون صعب دبترويت (النهار ١٧/٨/٢٠٠١)

"لم أرَ احداً أصيب، لكنني شاهدت شعباً بأكمله قد أصيب، وتأذى".

**سوزانا طوماس: طالبة اميركية كانت ترافق فرقة مسرحية اوسترالية، وقد اوقفت مع افرادها خلال تظاهرات جنوى الاخيرة ضد العولمة)**

اختصر رئيس الوزراء الصورة هذا الاسبوع، بعد اكراهه على السير في تعديل قانون اصول المحاكمات الجزائية على نحو يلبي رغبة رئيس الجمهورية: "ان احداً في البلاد لا يتمنى ان يكون رئيساً للحكومة في هذا الجو".  
وقد اعتبر اللبنانيون كلام الرئيس الحريري استقالة موجهة الى الشعب، وتساءلوا: كيف ستقوم قيامة الحكم في لبنان، ويتحقق انقاذه الاقتصادي، بعد القفز فوق الحكومة ووزرائها في قضية الملاحقات والتوقيفات التي تعرض لها قادة وناشطون في "القوات اللبنانية" و"التيار الوطني الحر"، والزام النواب الذين صوتوا ضد التعديل الذي اقترحه رئيس الجمهورية عندما رد القانون، باعادة النظر في موقفهم، من رأس الهرم المتمثل في رئيس مجلس النواب الذي كان اكثر المتحمسين لتجاهل موقف رئيس الجمهورية وتأكيد "سيادة" المجلس، الى رئيس الوزراء والنواب الذين احتشد ٧١ منهم وراء التعديل الذي سبق لهم ان رفضوه على اساس انهم "اسياد قرارهم"، احرار في مواقفهم. وقد اصاب النائب باسم السبع حين قال ان هناك "سيداً آخر على المجلس غير سيد المجلس نفسه"؟

وحتى لا يقال ان الذين استحووا ماتوا، فان في تغيب الرئيس حسين الحسيني احد ابرز المدافعين عن النظام الديموقراطي والحريات العامة، وخصوصاً في العهد الشهابي، ثم النائب مخايل ضاهر رئيس لجنة الادارة والعدل الذي قاد حملة رد اعتراض رئيس الجمهورية على قانون اصول المحاكمات الجزائية - ان في تغيبهما عن الجلسة ابلغ دليل على ان ثمة من لا يزال يحرص على كرامته وكرامة المؤسسة التي ينتمي اليها، فضلاً عن احترامه الدستور وارادة الشعب، وان بالغياب!  
ولم يكن مستغرباً ان يُظهر المجلس مثل الطواعية التي ابداهها حيال تعديل قانون اصول المحاكمات، وهو المعروف بان معظم "ركابه" وصلوا الى المجلس في "بوسطات" وزع "السيد" عليهم تذاكرها بحيث لم يصعد اليها سوى حملة التذاكر الممهورة بخاتمته. وهؤلاء جاهزون، غب الطلب، للبصم، ورفع الايدي... وقد تقدمهم هذه المرة رئيس الوزراء متذرعاً بـ"ان عدم التصويت يخلق مشاكل في البلد". ولكن هل بقيت في البلد مشاكل لم "تخلق" في وجه الحريري؟ وهل هذه

المشكلة ستؤخر او تقدم بالنسبة الى الحرب التي يواجهها رئيس الوزراء منذ عودته الى سرايا قبل نحو عشرة اشهر؟  
ولقد كان المحضر الذي نشرته جريدته "المستقبل" لجلسة مجلس الوزراء التاريخية يوم الخميس الماضي، ابلغ معبر عن الجرح الذي اصاب الرئيس الحريري وحكومته، والاذى الذي اصاب البلاد في وحدتها وصورتها في الخارج، مما اوحى ان المطلوب هو شل الحكومة، واحباط جهود رئيسها لانقاذ الاقتصاد المنهار. ولم يكتم الرئيس الحريري انزعاجه من موقف رئيس الجمهورية من خطة الانقاذ الاقتصادي التي يقودها رئيس الوزراء وخصوصاً حيال ضغوط صندوق النقد وموضوع بيع الذهب، وسبل معالجة الوضع. وقد صاغ هذا الانزعاج بأسلوب ديبلوماسي حين قال: "لا يعقل ان يصدر (في جريدة "السفير") عن رئيس الجمهورية كلام من هذا النوع. الاجهزة تلعب بنا".

في الواقع لم يكن هناك مجال لئلا "تلعب" الاجهزة بالحكومة وبالمجلس معاً، لو لم تكن الحكومة والمجلس "موضوعاً قليباً". وبطريقة اوضح ان "اللعب" على الطرفين لم يكن ممكناً لو لم يتنازلا اصلاً، الحكومة عند التأليف، والمجلس عند ترشح

النواب ووصولهم "مظفرين" الى ساحة النجمة، عن دورهما وصلحياتهما لمن هم ابرع منهما في ادارة الحكم. وهما يعرفان جيداً من "هم" الذين اشار اليهم النائب السبع بانهم "الاسياد الحقيقيون" للمجلس ولسواه من المؤسسات... لذلك لا مجال لأن يضحك احد على الشعب، او يتذاكى عليه، فقد اصاب الرئيسين بري والحريري ما هو مقدر لهما، وهما اللذان لم يخالفوا ارادة "السيد" وقد صمنا منذ قيام الحملة على "القواتيين" والعونيين، وكان صمتهما معبراً. اما ما قاله الرئيس الحريري في مجلس الوزراء فكان فشة خلق استوعبها رئيس الجمهورية وتفهمها لأنها كانت اقل المطلوب، علماً ان الرئيس الحريري كان مقتنعاً، كما ورد على لسانه في الجلسة، بان تنفيذ الخطة كان ينتظر سفره الى باكستان: "قبل ان اذهب القصة مركبة ومبحوثة ومحضرة، ولماذا لا نتكلم مع رئيس الوزراء؟ خوفاً من ان يعارض (...). وانا لا احب ان اعارضك يا فخامة الرئيس. ونحن نقدر آراءك ونعتبر انك الرجل الامثل لقيادة هذه الجمهورية". ثم حاول حماية نفسه، بعد اتهام الرئيس بطريقة غير مباشرة بانه هو الذي يقف وراء العملية وقد اعطى الضوء الاخضر لتنفيذها متجاوزاً مجلس الوزراء والقوانين المرعية الاجراء، وخصوصاً ان رئيس الجمهورية قد جرده دستور الطائف من سلطته، عندما توجه الى الرئيس لحدوث قاتلاً: "نحن اقوياء بالبلد وبوحدتنا وبفخامتكم".

في النهاية، ارادة المنتصر لا ترد. هذا كان عنوان دعوة رئيس الجمهورية رئيس الوزراء المثخن بالجروح، ورئيس مجلس النواب المهزوم - وان هو تظاهر بالدفاع عن تعديل قانون اصول المحاكمات وقلل من أهمية التعديل انقاداً لماء وجهه المجلس - الى بعدا من اجل خبز وملح الوفاق الجديد!

يبقى الوجه الآخر للزامة. ازمة الحكم من المعارضة والشعب الذي اتاح له الاعلام الاطلاع على كل شيء، وقد وجد نفسه امام دولة انزلت كل ادواتها الى معركة شاعتها كسر عظم جميع الذين يعارضون الوجود السوري في لبنان، ويخالفون الرئيس اميل لحود في توجهاته. وقد وضعت المصالحة التي حصلت في الجبل في هذا الاطار. وبصرف النظر عن الملاحظات التي تعرض لها العونيون وقادتهم، و"القواتيون" واحد قادتهم الدكتور توفيق هندي الذي بُثّ شريط فيديو تحدث فيه عن اتصالات له بالعدو الاسرائيلي... وقالت الزميلة كلود ابو ناصر هندي ان زوجها اعطي مخدراً... فان اللبنايين باكثريتهم الساحقة مجمعون على ضرورة صون السلم الاهلي واعتباره خطأ احمر، وكذلك على وجوب التصدي لاسرائيل وعملائها، اينما كانوا، وذلك دون الاخذ باي اعتبارات او اعدار.

الا ان اللبنايين حرصاء في الوقت عينه على وحدتهم وحريتهم، ويرفضون ان يشبه وزير قريب من رئيس الجمهورية هذه الحرية بديك في قن، يكفي خفض سقف القن حتى يختنق الديك ويكف عن الصياح، متناسياً ان الحرية هي روح الشعب وليست ديكاً في قن، بحسب الوزير المهندس الفهولي.

وهم حرصاء ايضا على حياتهم السياسية، سواء اكانوا في احزاب مجازة او في سواها غير مجازة. ولقد كانوا يتوقعون من الوزير علي قانصو الامين في الحزب القومي، ان يكون اشد المدافعين عن حرية المختلفين معه في العقيدة والتوجه السياسي، وخصوصاً في وجه وزير الداخلية وابلاغه (نعم "تبلغوا وبلغوا...") ان الاحزاب لا تأذن بها السلطة بل الشعب، وخصوصاً ان حزبه هو مثال للاحزاب المضطهدة منذ نشأته، ولم يكن يعترف باذن؟، وكان مناضله ملاحقين على الدوام على اساس انهم ينتمون الى حزب محظور، فيلقون في السجون وتمنع عنهم الوظائف، ومن يدري، فقد تتغير الايام ويعود حزبه الى الحظر؟ وهو كان اولي من سواه، رغم عناد الوزيرين مروان حماده وغازي العريضي في الدفاع عن الحريات في الجلسة - كان اولي من سواه في ادانة الاساليب التي اعتمدت في الاعتقال والاستجواب والملاحقة لاجزاء في تنظيمين مدنيين سلميين - وان اختلف معهما - وقد تعرض حزبه لاوسع حملة وابشعها عام ١٩٦٢ فسيق مناضله بالالاف الى

اسطبلات الخيل والمعتقلات الشبيهة بالمعسكرات النازية، وحطمت عظام رئيسه الدكتور عبدالله سعادة، والد النائب سليم سعادة. اذ لا يعرف قيمة الحرية سوى المضطهدين، وحزبك بامتياز حزب المضطهدين الاحرار. الم يقل الزعيم انطون سعادة: "اذا لم تكونوا احراراً من امة حرة فحريات الامم عار عليكم؟"

ماذا بعد؟

ثمة حقيقة يستحيل تجاهلها، هي ان "المعركة" التي خيضة بكل الوسائل والاساليب لم تكن ضد "العونيين" و"القواتيين" لان العماد ميشال عون لا يعترف بنظام الطائف ويهاجم رئيس الجمهورية ويقذفه بنعوت غير لائقة. ولا لأن سمير جعجع يريد الانقلاب على سلطة الطائف وتقسيم لبنان واقامة حكم كونفيدرالي، بل لأن مشروع البطريك مار نصرالله بطرس صفير لاسترجاع السيادة والاستقلال والقرار الحر، يتقدم بخطى قوية وثابتة، ويجمع حوله جميع المطالبين بتصحيح العلاقات مع سوريا، تمهيداً لانهاء دورها العسكري في لبنان. ولقد كانت المصالحة في الجبل، وفي عرس المختارة خصوصاً، بشيراً بقيامة لبنان السيد الحر والمستقل. لذلك كانت المعركة من اجل وضع حد لتدريج كرة الثلج هذه. ولكم كان الفرح بالمصالحة كبيراً، لو كانت حدائق قصر بعيدا مسرحها، على الا تقتصر على الجبل، بل نعم كل لبنان، برعاية الرئيس اميل لحود وبقيادته. وبذلك يظهر مارونيته التي لا مجال لانكارها، لانها مبرر وجوده في بعيدا. ولا نعني بالمارونية هنا التحزب او التعصب الطائفي، او استغلال المذهب لتحقيق مكاسب شخصية وتشريع الفساد، بل نعني "المارونية السياسية" الحق التي تستلهم القيم الاساسية التي صنعت لبنان، وخصوصاً الغفران الذي حمله البطريك الى دروز الجبل، والتسامح، والعدالة، والمساواة، والتعلق بالحرية التي من اجلها أحرق المماليك عام ١٣١٥ البطريك حجولا في ساحة التل في طرابلس عل ذلك يرهب المواردة ويخضعهم، فرفضوا ذلك ونقلوا مقر بطريكتهم من ميفوق الى دير قنوبين حيث امكانات الدفاع اقوى في مغاور الجبل المقدس.

وهنا سر التمسك بمارونية الرئيس وقيادته. وهذا الأمر يرتب عليه مسؤولية التكايف والتضامن مع الرئيسين الآخرين، والحرص على كرامتهما باحترام صلاحياتهما، وتقبلها مختاراً.

ويجب الا يغيب عن الرئيس الماروني انه، وان شاء ابقاء مارونيته خارج اطار الحكم، لا يستطيع الحؤول دون انعكاس تصرفاته على الجماعة التي ينتمي اليها وفي مقدمها البطريك الراعي. من هنا الوجع الذي يعبر عنه المواردة اليوم حيال ما حصل مع رئيس الوزراء، ثم مع رئيس مجلس النواب، وقد شعرا ان الرجلين قد صعدا الى بعيدا امس كمن ينفذ مذكرتي احضار.

..وستظل المسألة مسألة استقلال وسيادة وقرار حر، يتسع مداها باستمرار حتى تنتصر فينتصر لبنان، لان المنتصر الى الآن - خلافاً لزعم الوزير سليمان فرنجيه - هو سوريا واسرائيل، وليس الفريق الذي حالف سوريا ضد الفريق الذي راهن على اسرائيل. ذلك بان الفريق الاخير يمثل حفنة من اليايسين الذين باعوا انفسهم للشيطان.

..والشيطان رجيم في الاسلام كما في المسيحية، فاتقوا الله ايها الحكام واتعظوا